الولايات المتحدة والحرب

١ — تنصيب روزفلت الثالث وجزاؤه

٢ — موقف الامة بعد قانون الاعارة والتأجير

مصر وطريق الهند

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

لجان الدين الشيال

الولايات المتحدة والحرب

« ان الحقيقة الرئيسية في عالم السياسة الحديث هي ان
اميركا الشمالية تتكلم اللغة الانكليزية » « مسهارك »

١ — تنصيب روزفلت الثالث ومغزاه

بينما كان الحاكمان بأمرهما ، أو الحاكمان بأمر أحدهما ، يتأهبان للاجتماع في مكان ما ، في أوربا يوم الاثنين الماضي في ٢٠ يناير ، كان الرئيس فرنكلن روزفلت ، يتأهب لحفلة تنصيبه الثالثة ، والقاء خطبة الرآسة الثالثة ، أمام دار الكابيتول مقر المجلسين النيابيين في الحاضرة الاميركية ، وفي ظل مسلة واشنطن مشيد الوحدة ، وتذكار لنكن الذي صانها من الانفصام

ولو ان قدرة علوية ، أرادت قصداً ان تجمع في إطار عالمي ، صورة الضدين ، لتفرض على العالم قاطبة ، المقابلة بينهما ، واستخراج العبرة من المقابلة لماهيات الاحداثين ، كهذين الحادثين في يوم واحد . أو اهل قدرة علوية ، أرادت ذلك قصداً ، وليس عليها شيء عسير

في الجانب الواحد من الصورة رجلان يجتمعان خفية في معزل عن أعين الرقباء وفي حماية نفر من الحرس والأرصاد ويدبران سراً ما يريانه كفيلا باخضاع العباد ، وتقييد العقل ، وفرض السلطان بالقوة الغاشمة

وفي الجانب الآخر ، رجل يقف حاسر الرأس أمام الجماهير ، يملي ثقته « برضى المحكومين » واحترامه لعقل الشعب وروحه ، واعتداده بالرجل النفسي ، وعزمه الذي لا ينثني ، على ان ينهض بالولايات المتحدة الأميركية ومعها ، الى مستوى تاريخها المجيد . ان في كلماته رنة من كلمات واشنطن وهو يناشد شعبه ان « احتفظ بحذوة الحرية المقدسة » ، وعلى كلماته الخلقية والخُلقية ، مسحة من انسانية لنكن وهو يقول : « هذه الأمة لا يمكن لها نصفها عبد ونصفها حر » . هنا ضدان جمعتهما القدرة العلوية في اطار وهما لا يجتمعان

ان الحاكم بأمره يسعى الى التغلب على توزعه النفسي بالالتجاء الى الاتية الخارجية الصاخبة ، وروزفلت يستطيع ، ثقته بسلامه النفسي ، ان يعرض عن مظاهر الوقار التي تلزم منصبه بغير ان يفقد وقاره . الحاكم بأمره يبدأ بالحقد والاضطهاد . ورغبة روزفلت الأولى متجهة منذ امد خاض غمار السياسة ، الى حماية المضطهدين . الحاكم بأمره لا يتكلم الا عن مصلحة القوم كما يفسرها ويصورها مصلحة الضيق أو شعوره الموتور ، وروزفلت لا يتكلم الا عن مصلحة الفرد

« كرامته وعظمته . الحاكم بأمره يعيش في حربه وله ويلقي سائر الأحزاب . وروزفلت يعيش في نضال الأحزاب . الحاكم بأمره يقتصب السلطان بالسيف والنار ، ويحافظ عليه بالاضطهاد والاعتقال . وروزفلت تلقى السلطان في ثلاثة انتخابات متوالية نتيجة « لاضراب الأكثرية الحرة من الأمة عن رأيها الحر » . الحاكم بأمره يخلق الأزمات لكي يحرز في حلها نصراً جديداً يضيف لمة جديدة الى الهالة التي يتوجها بها انتصاره . وروزفلت وجد نفسه في مستهل رئاسته الأولى امام اقسى أزمة اقتصادية منيت بها أميركا وفي مستهل رئاسته الثانية أمام أزمة عالمية ، فاتجه اليه الشعب يطلب القيادة الرشيدة والضوء . ورغبة الحاكم وشهوته تدفعانه الى دك أركان المجتمع ، ورغبة روزفلت تتجه الى حفظها وتدعيمها . الحاكم بأمره يرتاب في الناس ، وروزفلت يسعى اليهم ، الاول همه أن يُرهب والثاني همه ان يُحب

وليس الغرض أن أقول ، أن روزفلت رجل كامل ، كلاً ، ولكن الصفات التي تقدم ذكرها بارزة فيه ، في خلقه كرجل في داره ، وفي خلقه كسياسي في الحلبة العامة . وما هذه الصفات سوى ، اعراب ، مستوياً رجلاً ، عن لون من الحياة ، وصورة من المجتمع ، بينما الصفات التي يتصف بها الحاكم بأمره ، منذ ما عرف باسم الطاغية في عصر الاغريق القدماء ، الى أن عرفناه في عصرنا باسم الدكتاتور ، واحدة على مرّ العصور قلما تتغير ، وهي كذلك اعراب مجسم في رجل ، عن لون من الحياة ، وصورة من المجتمع البشري

***

كتب الدكتور جون فلي ، وكان مديراً لمعارف ولاية نيويورك ومحرراً لجريدة نيويورك تيمس ، وأحد المقربين الى الرئيس ولسن ، أنهُ وصل في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو سنة ١٩١٨ الى روما فكان أول ما استوقف نظره عند نزوله من القطار عنوان عريض بحروف ضخمة في إحدى الصحف الايطالية مؤداه « الجنود الاميركية في الميدان الايطالي » فعقب في مذكراته على ذلك بقوله : « أن صيحة الحرية من العالم الجديد ترن أصداؤها في أرض مكتشفه »[1]

وقد مضى ولسن وفلي وغيرهما الى لقاء ربهم ، ووضعت ايطاليا الرسمية اصنامها في آدابها فلا تسمع صيحة الحرية لآن ، ولكن الصيحة ماتزال منبعثة من العالم الجديد ، وفي أوربا بل في ايطاليا نفسها ، ملايين من الآذان تتوق الى سماعها ، ومن القلوب تتهيأ لها ، على الرغم من أن الاوامر العسكرية قد حالت بين آذان هؤلاء وبين أمواج الاثير الحاملة أصداءها

وقد التقى وشاح الرئيس ولسن على كتفي فرنكلن روزفلت العريضتين . فهو مطبوع بطابعه

(١) كوريير وأصله ايطالي

التالي ، مؤمن ايمانهُ بالديمقراطية ومستقبلها من حيث هي نظام للحكم ، وصورة للاجتماع ، ولكنه يفوقهُ في صدق نظرته الى حقائق الحياة ، وحسن تصريفه الامور . ان صورته يجمع بين النزعتين وهو يقول : « الديمقراطية لم تمت ، ولا هي سائرة في طريق الموت . انا اعلم ذلك لأني رأيتها تبعث بعثاً جديداً وتمضي في طريق النمو أنا نعلم ذلك لأنها السعي الطليق من القيود ، يبذله افراد من رجال ونساء في عمل مشترك ، في عمل يعمل ويتجزعن طريق الاعراب الحر عن رأي : كلمة حرة » . واني لأتصور الرئيس روزفلت وهو واقف على سلالم الكابيتول يقول هذا القول في خطبة رآسته الثانية ، فتعود بي الذاكرة ثماني سنوات الى الوراء فأتخيله في اليوم الرابع من مارس سنة ١٩٣٣ وهو يوم تنصيبه الاول واقفاً الوقفة نفسها وقد دعي الى تقلد أعلى منصب في الدولة ، فواجه في ذلك اليوم الذي يجب ان يكون يوم فرح وابتهاج ازمة مالية اقتصادية عصفت بمشاعر الامة من الساحل الى الساحل ، فالمصارف مفلسة او على شفا الافلاس ، ومعملات الصناعة تسير في بطء وتتناقل نحو الوقوف ، وعشرة ملايين او يزيدون من العمال معطلون عن العمل ، والناس حيارى لا يعلمون ما يكون مصير كل ما بذلوه من جهد او نشاط ، ولا ما يكون مصير اولادهم من بعدهم

وقف فرنكلن روزفلت هناك ، شاحب الوجه ، يده اليسرى على التوراة التي جاء بها جده الاعلى من اوربا قبل ثلاثة قرون عند ما هجرها طلباً للحرية ، ويده اليمنى مرفوعة امام رئيس المحكمة العليا ، فأقسم يمين الولاء للدستور ثم اشرأبت اليه الأعناق ، لتلتقط كل كلمة تخرج من فيه . وبدأ خطبة الرآسة فقال : هذا وقت يتعين علينا فيه ان نقول الحقيقة في صراحة وجرأة .. ان الشيء الوحيد الذي يجب ان نخافه هو الخوف .. بهذه الروح فيّ وفيكم نواجه معاً متاعبنا المشتركة .. وهي متاعب ، ليس مردها ، بحمد الله ، الا الى الأشياء المادية ... ان مصيبتكم ليست ناشئة عن امساك الارض . والجراد لم يكتسح زرعنا .. فاذا ليست متاعبنا من هذا القبيل عما عاناه آباؤنا واجدادنا فليس لنا الا ان نحمد الله ... ثم انتقل الى الهجوم فقال : ان الصيارفة قد فروا من مقاعدهم في هيكل الحضارة .. فلنعد الآن أن نعيد تكريس ذلك الهيكل للحقائق الخالدة .. ان الأمة تطلب العمل وستأخذ في ما تريد »

كان العدو الذي واجههُ روزفلت حينئذٍ والأمة من ورائه ، عدوًّا داخليًّا . فقابلهُ بذلك المزيج الفذ في نفسه ، من النزعتين الكمالية والعملية في آن واحد . ولم يكن في حلبة السياسة الدولية حينئذٍ ما يبعث على القلق ، ومع ذلك نجد في بضعة السطور القليلة التي خصص للسياسة الخارجية في خطبته ، نواة للخطة التي يجهر في الدعوة اليها اليوم ، قال : « وفي ميدان السياسة العالمية ، أكرس سياسة هذه الأمة لمبدإ الجار الطيب ، الجار الذي يحترم نفسه ، ويحترم لذلك ،

حقوق غيره . الحر الذي يحترم ما يجب عليه ويحافظ على عهوده وحرمتها ، ان كل ما يملكه الفقراء ويطالبونه ويطمعون فيه ويتوسلون به مردود في هذه العبارة البسيطة لان روزفلت أفرغ فيها احدى الحقائق الخالدة في تاريخ الاجتماع البشري

وقد انصبت عليه ثماني سنوات ، اشتد فيها الخلاف على بعض الخطط التي اقترحها ، وكانت المقاومة على اشدها ، من الطبقة التي وصفها في خطبته الأولى بعبارة «الصيارفة الذين قووا من مقاعدهم في هيكل الحضارة» وهي الطبقة التي ينتمي اليها هو ، بحكم نشأته . ولكن كتلة الشعب أيدته وزكته مرة اخرى في سنة ١٩٣٦ عند ما جددت انتخابه بأكثرية لا مثيل لها في تاريخ الولايات المتحدة ، وأخيراً خرجت على كل تقليد سابق في حياة أميركا السياسية ، فانتخبته مرة ثالثة للرآسة ، وهو أول من انتخب لها ، فكأنها نادته في سنة ١٩٤٠ كما نادته سنة ١٩٣٢ لقيادتها في أزمة أخرى عصيبة

فعندما وقف من أيام (٢٠ يناير ١٩٤١) لالقاء خطبة رآسته الثالثة ، كان العدو الداخلي ، الذي واجهه قبل ثماني سنوات ، قد تراجع قليلاً ، ولكن العدو الخارجي بدا في الأفق الدولي القريب . ان مصير صورة الحياة الديمقراطية التي ارتضاها شعبه وآثرها على غيرها موددة بالزوال ، فلتكن هذه الخطة ، كما كانت الخطة التي سبقتها من ثماني سنوات ، تكريس الأمة تكريساً جديداً للحقائق الخالدة ! ولتفت أمواج الأثير كلماته الى اربعة أقطار الأرض وكأنها بوق ينادي للكفاح

ولكن الروعة المثالية في تركيب روزفلت العقلي ، لا تحجب عن ناظريه حقائق الأحوال . وليس ادراك الحقائق بالشيء الذي طرأ عليه اخيراً ، بل هو أصيل فيه . فقد كان وكيلاً لوزارة البحرية الأميركية في أثناء الحرب العالمية الأولى ، وكان في الثلاثين من عمره ، فوجه همه من البدء الى اقناع الشعب الأميركي ، بوجوب تعزيز الأسطول ، ونشرت عشرات من المقالات بوحي منه ، وفيها الدليل على ان مائتي ميل لا غير من سواحل الولايات المتحدة — وطولها الفا ميل — محصنة والباقي غير محصن ثم سعى بعد ذلك الى اعداد الاسطول ليكون متأهباً اذا اضطرت البلاد الى خوض الحرب . ولكن الرئيس ولسن كان أقوى معارض لهذه الخطة . وفي خريف سنة ١٩١٦ — أي نحو سنة أو سبعة أشهر قبل دخول اميركا الحرب — قابل روزفلت الرئيس ولسن فقال له ان الحوادث تسير سراعاً ونحن على وشك الاضطرار الى ما يلوح ، فيجب ان نكون متأهبين . فهز الرئيس ولسن رأسه معارضاً . ثم حوّل الموضوع الى مسائل أخرى حكومية . فلما همّ روزفلت بالانصراف ، استبقاه ولسن وقال : ان عيون التاريخ تحدق فينا ، نعم ان من المرجح اننا سندخل الحرب ، مضطرين ، ولكن في سنة ١٩٨٠

سيكتب مؤرخ تاريخ هذه الحرب . وقد يكون المؤرخ ألمانيًا أو روسيًا ، فيجب ان يكون في قدرة ذلك المؤرخ ان يقول صادقاً « ان أميركا لم تذهب للحرب الا بعد ما اضطرت الى خوض غمارها »

وبعد ما أعلنت أميركا الحرب في شهر ابريل سنة ١٩١٧ ظهر ان ثلث سفن الأسطول الأميركي فقط ، على جانب وافر من التأهب الحربي ، وان عشرها فقط ، كان عامراً بجميع ما يلزم لها من الضباط والبحارة ، وان الاسطول الأميركي يحتاج الى تسعة أشهر من التأهب على الأقل قبل أن يبلغ اقصى قوته

وعرفت هذه الحقائق ، فكان خصوم روزفلت يقذفونها في وجهه فيما بعد ، متهمينه بأنهُ خاب في أهم ما يجب عليه نحو قومه اذ قصَّر عن قصد أو عن جهل في اعداد الأسطول الأميركي ولكن ولاءه للرئيس ولسن وذكراه ، حال دون اذاعة الحقائق على وجهها الصحيح ، الى قبل سنتين من الزمان

وفرنكلن روزفلت نفسه جالس الآن في مقعد ولسن . وفي يده زمام قوات أميركا المسلحة ومقدراتها السياسية ، ولا ريب في أن ذكرى تلك الأيام من نحو ربع قرن من الزمان مطبوعة على لوحة نفسه ، وهو يرى ان الخطر الذي تتعرض له الولايات المتحدة الأميركية في سنة ١٩٤١ أو ما يليها ، أعظم جدًّا وأشد اتصالاً بقواعد الحياة الأميركية من الخطر الذي كانت معرضة لهُ في سنة ١٩١٦ وهو لذلك يريد بلاده متأهبة للدفاع ، ويرى ان تأهبها للدفاع الكلي ، لا يتم على أوفى وجه ، الا اذا بذلت الولايات المتحدة أقصى العون لبريطانيا ، لان الدفاع عن بريطانيا دفاع عن اميركا . انهُ لا ينظر الى ما يحتمل ان يقوله مؤرخ ألماني أو غير ألماني بعد خمسين سنة من الزمان ما دام مقتنعاً بأن الخطة التي اختارها فيها ضمان لمصالح قومه العليا ، وهذه المصالح تندمج في طبقتها العليا في مصالح الحضارة نفسها

هذه الاعتبارات تفسر مئات الملايين من الدولارات ، التي تغرمها اللجان الفنية ويوافق عليها مجلسا الامة كل يوم . ففي خلال العشرة الأيام الاخيرة أقر ما يزيد على ألف ومائتي مليون من الدولارات ، لتعزيز الأسطول الأميركي ، والدفاع الساحلي ، وتوسيع نطاق الأسطول التجاري . وهي تفسر مشروع القانون المعروض الآن للبحث وهو المعروف بقانون عون بريطانيا أو قانون الاعارة والتأجير . وتفسر كذلك رحلة ممثلين شخصيين للرئيس وسفراء رسميين مثل المستر هري هبكنز والاميرال ليهي والكولونيل دونوفان الى بلدان اوربا وافريقيا . ان الغرض من رحلتهم ، مزدوج ، فأولاً التوكيد لجميع الذين يجتمعون بهم من أقطاب الحكومات المختلفة ، ان الولايات المتحدة الاميركية جادة فيما تقول ، وانها ماضية في تأييد بريطانيا الى أقصى حدود قوتها وقدرتها ، وثانياً العودة الى الرئيس بحقائق مستقاة من مصادرها عن الحالة الدولية واتجاهاتها

ان البراعة المثالية في طبيعة الرئيس روزفلت، التي يعرب عنها في اقوال نهر أوتار القلوب، وادراكه الواقعي لحقائق هذه الحرب ومسائلها الاساسية ، وتأييد كتلة الشعب الاميركي وكثرة النواب والشيوخ له ، وقدرة أميركا التي لا تجارى على الانتاج الصناعي الحربي ،هي مصادر القوة التي يحسها كل من يقرأ في خطبه الاخيرة قوله « ثلاثي ، روح اميركا وايمان اميركا اننا ان ننحني ولن نقف جامدين »

ويطيب لي أن أتصور شيخاً فلاحاً اميركيًّا ، عند مختتم هذا القرن ،وقد جلس الى حفيده يحدثه فيقول : عندما كنت صبيًّا يافعاً ، كان في شطان رئيس يسمى روزفلت ، وله في بيت ثروة وجاه ولكنهُ حارب الأثرياء . وأصيب في شبابه بالشلل في رجليه ولكنهُ تقدم الامة الى القتال، السيف في يده وكلمة الحرية النارية على شفتيه .كان روزفلت هذا يا بنيَّ، صديقاً صدوقاً للشعب ، ومؤمناً تحقيق الايمان بالانسانية الحرة

٢ — موقف الحرب بعد قانون الاعارة والتأجير

في اليوم الحادي عشر من شهر مارس سنة ١٩٤١ اجتازت الولايات المتحدة الاميركية نهر « الروبيكون » في هذه الحرب. فلا تردد بعد هذا ولا التفات الى الوراء . ونهر الروبيكون هذا في شمال ايطاليا . وقف عنده يوليوس قيصر متردداً ثم قرر الزحف على روما فلما اجتازه ، ذهب اجتيازه له مثلاً . وهو اشبه ما يكون بما تم لطارق بن زياد ، عندما نزل في ساحل الاندلس وحرق السفن التي أقلت رجاله ، وقال لهم : « البحر وراءكم والعدو امامكم »

ففي اليوم الحادي عشر من هذا الشهر ،عندما وقع الرئيس روزفلت مشروع قانون « الاعارة والتأجير » ،فأصبح قانوناً، اجتازت الولايات المتحدة نهر الروبيكون كما فعل قيصر، وحرقت السفن وراءها كما فعل طارق بن زياد ، فكان هذا العمل خطوة حاسمة في تاريخ هذه الحرب، وعندي انهُ خطوة حاسمة كذلك في مستقبل العلاقات البريطانية الأميركية

ولم تنقض ايام حتى القى الرئيس روزفلت خطبته البليغة في مأدبة البيت الابيض لجماعة الصحفيين . فأعرب فيها بكلمات مختصة ، صادرة من صميم النفس الاميركية ،عن مغزى هذا العمل العظيم . ولم تنقض ايام اخرى حتى عبَّر السفير الاميركي الجديد في لندن عن أعزى نفسه بكلام لا يقبل التأويل، فدعا الأبيض أبيض، والاسود اسود ، ولم يداور ولم يبالي ما يقوله خصومهُ

فالرئيس يطلق على رؤوس الاشهاد في كلام يسلم، على قوله « ان كل كلمة منهُ تسجل عليه » « ان الاوتوقراطية البروسية كانت شرًّا ، ولكن النازية شرٌّ منها . وان القوى النازية لا تسعى الى تعديل خارطات المستعمرات ، ولا الى تنقيح حدود الدول الصغيرة في أوربا بل تسعى صراحة الى القضاء على نظم الحكم الانتخابية في جميع القارات ومنها قارتنا . وتسعى الى انشاء نظم

للحكم قائمة على اقناع الناس في قالب واحد كالانعام ووضع زمامهم في ايدي حفنة من الحكام الافراد الذين انتزعوا السلطان بالقوة . ان هؤلاء الرجال واتباعهم النوميين ، يدعون هذا نظاماً جديداً ، ولكنه ليس جديداً ولا هو نظام . ان الانسانية لم تنتظم استقامة دائمة الى نظام فرض عليها بالقمع وقاعدته الاستبداد » انتهت العبارة المقتبسة من كلام الرئيس

وأما السفير الأميركي الجديد في لندن ، فقد جرت على لسانه عبارات لا التواء فيها ولا إبهام فهذا النضال في عرفه « نضال بين الهمجية والحضارة » . والثانية في قوله « نأبى ان نعترف بكرامة الانسان ، وحرية الفرد ، والمساواة أمام القانون » . وهي في قوله كذلك « حين جنوحها فنسعى الى التوصل بمخترعات العقل الحر والروح المبدع ، لتستعبد العقل وتطمس نور الروح »

واذن فالولايات المتحدة قد خطت الخطوة الحاسمة ، فلا تردد بعد الآن ولا التفات الى الوراء

وقد خطتها أمة متحدة . فزعيم المعارضة في مجلس النواب ، وقف بعد فرز الأصوات ، واعلان موافقة ٣٧١ صوتاً ، على المشروع ضد ٧١ صوتاً ، فارتفع في قوله الى ذرى البلاغة عندما صاح « احمد الله انا أعيش في بلد يستطيع ان تناقش فيه مسألة عظيمة مناقشة حرة ، ونحن اليوم امام هذا القرار ، لسنا جمهوريين ولا دمقراطيين ، ان ولاءنا ليس مُوزعاً ، وجهنا يد واحدة عسى ألا تزول النزعة الاميركية الصادقة من الارض » . ووقف المستر بلوم رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب فقال « ان هذا القانون هو الصوت الصارخ في جنبات العالم مكذباً من يقول ان الدمقراطية لا تعجز من ان تقف وجهاً لوجه مع اعتداء العتاة » وعرج الرئيس روزفلت على المعنى نفسه فقال في خطبته « ان وحدتنا ليست تلك الوحدة الكاذبة التي مردُّها الى الارهاب بالقوة والتضليل بالدعاوة . وان جهدنا اليوم ليس جهداً جزئياً وانما هو جهد كلي »

تقول برلين ان هذا القانون يقتطع حرمة مبدأ مونرو . فيرد الاميركيون قائلين مهلاً مهلاً انما نحن اقررناه لكي نحمي مبدأ مونرو من العبث به . وما يثقت من الدعاوة الدكتاتورية في جمهوريات اميركا الجنوبية ، يهيب بنا الى الوقوف صفاً واحداً لحمايته

وتقول روما ان هذا القانون خروج على الحياد ، فيرد الاميركيون ، وماذا فعلتم في اسبانيا ، وما قيمة الحياد في عصر تصفون فيه على الحياد ؟ واذا كنتم قد دسّم ناقد لكم حياد الدول الصغيرة ، فليس لكم ان تبرموا بما تفعله الدول المحايدة الكبيرة

ويهدد السفير جايدا اميركا ، بما ينتظر أن يفاجئها في المحيط الهادي ، فكأنه طالب صغير في مدرسة لم يقو على طالب آخر فهدده بشقيقه الكبير . ومع ذلك فلم نكن ندري ان السفير

جايد أصبح لـ أ يتطق باسم طوكيو ويتكلم عن المحيط الهادىء . بينما لا تقع في كلامه على ذكر البحر المتوسط !

لا . ان الولايات المتحدة الاميركية وضعت يدها على المحراث ولن تلتفت الى الوراء

ولماذا فعلت الولايات المتحدة هذا ؟

البكم ناحية من السبب في قول الصحفي الاميركي الكبير مارك صليفن وهو شيخ الكاتبين السياسيين في العاصمة الاميركية . قال : انا لا نخشى الآن من بعد غزوة المانية مباشرة لأرضنا ولكن الخطر الصحيح الذي يواجهنا ، هو في نظر أصحاب الفكر والرأي ، خطر القضاء على النظام الأميركي بغير غزوة مباشرة . اما كيف يتم هذا القضاء بغير غزو ، فخطوطه الرئيسية كما يلي : اذا تغلبت المانيا على بريطانيا ، أصبحت سيدة البحر ، وصاحبة حول وسلطان ، على العالم ما عدانا (اميركا الشمالية) ثم تفرض المانيا نظامها « الكلي » على العالم ، بالسلاح أو بالتهديد بالسلاح أو بالضغط الاقتصادي . وتبدأ في جميع البلدان بتحويل الصناعة والتجارة واخضاعها لحكمها وتدبيرها . وتنشيء من تجارة العالم وصناعته كتلة واحدة ، المانيا قلبها ، ومقرها في برلين . فتقول لبلد ما عليك بأن تنتج قمحاً وتصدره الى حيث أبين لك . وتقول لآخر عليك أن تنسج منسوجات . وثالث ان تتوفر على صناعة السيارات . وتحتفظ هي لنفسها بالصناعات التي تعتبر مفتاح القوة الحربية في هذا العصر كصناعة الأسلحة على اختلافها والذبابات والطائرات وتحتفظ بصناعة السفن أو تبسط سيطرتها التامة عليها في بلدان أخرى ، بحيث تكون الأساطيل التجارية جميعاً رهن اشارتها . ولا يعد ان تمنع البلدان الأخرى من بناء سفن تجارية الا اذا كانت دون تفريغ قليل معين . وكذلك تغدو جميع مراكز الانتاج وجميع طرق العالم التجارية سدًى ولحمة في نسيج واحد تحركه يد واحدة حتى لكأن العالم مصنع واحد ومتجر واحد كلاهما العيا في برلين

ونحن الاميركيين نخشى أن نعجز ، بعد ما يتم كل هذا ، بل قبل أن يتم ، عن البقاء خارج هذا النظام العالمي ، ويعزل عنا . ونخشى ان نغدو مضطرين برغم انوفنا الى الانخراط في النظام الكلي في صناعتنا وتجارتنا . وعندئذٍ لا يعود لنا من أن يتبع حكمنا واجتماعنا ذلك النظام . هذا هو لباب الرأي ، الذي حفزنا الى العمل . ومهما يكن لون الخطر الذي يهددنا من ناحية المانيا ، فان بريطانيا خير واق لنا منهُ ، فاذا صمدت بريطانيا فليس في وسع هتلر ان يهاجمنا مباشرة ، واذا صمدت بريطانيا ، فليس في وسع هتلر أن يفرض نظامه هذا على العالم

اما ولتر ليبمان فيقول : ليست المسألة : هل قليل من العون لبريطانيا يغنيها عنجى من الخرض للحرب ، او هل مزيد منهُ يحتم علينا خوضها . ولكن المسألة هي هل نستطيع قبل فوات

الأوان ان نخطو الخطوات اللازمة ، لمنع هذه الحرب — التي لم نعد نأمل حتى الآن نحوض غمارها — من ان تتحول حرباً لا بدَّ لنا من ان نخوضها ونتحمل دماءنا فيها ، وهي تكون فيها وحدنا حينئذٍ

***

هذا هو وصف الباعث الالماني على الموقف الاميركي ، ولا حرج في وصفه ، ولا عجب في اذاعته ، فالباعث الالماني أقوى البواعث لأنهُ أوثقها صلة بالدفع عن النفس وحفظ الكيان . ولكن باعثاً آخر يصطحبهُ ، مداره التحقق بصورة معينة من الحياة ، ويقابله في عالم العقيدة الحية التحقق بزوج او حبيب . قد تكون مزايا تلك الصورة من الحياة قائمة في عالم الوهم والخيال او مستنزلة من صميم الحقيقة نفسها ، ولكن سواء ، أهذه كانت أم تلك ، فانها مرتبطة بالاعمال والشعور ولذلك فهي تدفع الى العمل

وقد مضى على الاميركيين ثلاثة قرون ، منذ نزلت افواجهم الاولى في العالم الجديد من سفينة « المايفلور » وهم يزعزعون قواعد هذه الصورة من الحياة ، في البيت والمدرسة والحكومة ، في خطب الأقطاب وروايات الادباء واشعارهم ، وفيما يختارون دراسته من أدب الاغريق القدماء وتاريخ الامة الانكليزية وادبها وعلمها وفلسفتها من ثمانية قرون الى الآن

وما هي هذه القواعد ؟ هي ان السلطان والحرية غير متنافيين ، وان في وسع الانسان التمتع بالحرية بغير ان تعم الفوضى وان الحكومة تستطيع ان تمارس السلطان بغير ان ينتشر الاستبداد ، وان الثقة بكلمة المتعاقدين ، والقدرة على الاستناد الى وعد الرجل المستقيم أساس لا غنى عنهُ للاجتماع الاقتصادي ، وان الناس سواء أمام القانون ، فمصيرهم ليس متعلقاً بنزوة حاكم طارئة أو شهوة شرطي سري . وهذه جميعاً مردها الى الاعتقاد في أن الانسان الفرد غاية في بناء الحضارة ، والايمان بالعقل ، والاصرار على أن لفرد المفكر كرامة في ذاته . أي أن المبدأ الاساسي في هذا النظام الاجتماعي الاقتصادي قوامه أن الفرد غاية في ذاته وليس مجرد آلة او أداة تحركها قوة فرد آخر أو حفنة من الافراد . وهذا القول ينطوي على وجوب منح الفرد بضع حريات أساسية ليكي يتاح له النمو العقلي والروحي المتسق وفي مقدمتها الحرية ليزن ويحكم ، والحرية ليبحث ويناقش ، والحرية ليعرب عن رأيه ، والحرية ليؤمن ويعبد . فالحريات المدنية والدينية هي روح الحضارة ، هي لباب هذه الصورة من الحياة النازلة في الصميم من شعور الاميركي واعماله ، فتعرضها للبوار يحرك عقل الاميركي واعماله معاً ، فاذا اضيف الى ذلك شعوره بان كيانهُ ، بأن سلامته مهددة ، فأظن ان السبب الذي حمل الولايات المتحدة على وقوف هذا الموقف يغدو واضحاً

وليس معنى هذا ان هذه الصورة تجمع كل الخير ، أو انها في الطريق خالية من الصوت . فالسيد الرئيس نفسه قال في خطبته عند الترحيب بالسفير الأميركي الجديد « لعل اهم ان فيه مصاعب في نظامنا الاجتماعي حبوباً وأغلاطاً . ولكن مجال الاصلاح يتسع حيث يتسع مجال النقد ورجاؤنا في المستقبل لا يخبو نوره ولا يخفق اذا ظل مصباح العقل الحر مضيئاً »

أما القواعد الرئيسية البارزة في الصورة المقابلة ، فهي قواعد « الزعامة المطاعة » والكلمة الشائعة . فالشركة في هذه الصورة مفيدة بقيد تقابل من حديد ، ومصائر الملايين من الناس ، في أيدي فئة من « المتفوقين » أو من الذين يزعمون التفوق لأنفسهم ، فهم طبقة الأسياد ، وسائر الناس اجزاء في آلة يحركونها ، فيوجهونها الى الزراعة او الى الصناعة أو الى الحرب أو الى المستعمرات ، وهذا انكار للمثل الاجتماعية العليا التي وضعها الرسل ومعلمو الفلاسفة وغنى بها الشعراء من فجر الحضارة الى الآن

والآن ما تأثير هذا القرار الأميركي في المستقبل القريب والبعيد . التأثير الأول تأثير معنوي سرت موجته عبر المحيط الأطلسي الى أوربا واتقلت بالبلقان . وسرت موجته كذلك عبر المحيط الهادي ، واتصلت بالصين ، ثم جنوباً فاتصلت بزيلندا الجديدة واستراليا ، حيث يتجسم موقف الولايات المتحدة وتصميمها ، في ست سفن حربية تزور تلك البلاد الثائية زيارة صداقة وود

وأما التأثير العملي المباشر ، في حق الرئيس روزفلت أن يبيع حالاً لبريطانيا واليونان والصين ، وكل دولة أخرى تقرر الدفاع عن استقلالها وسلامتها ضد الطغيان والاعتداء ، ما قيمته ١٣٠٠ مليون دولار مما تملكه الولايات المتحدة الآن من الأسلحة والذخائر وأدوات الحرب ، بغير قيد ولا شرط . ولم تنقض دقائق خمس على توقيع الرئيس روزفلت قانون « الاعارة والتأجير » في اليوم الحادي عشر من هذا الشهر ، حتى أصدر الأمر بالشروع في التنفيذ ولم تنقض يومان حتى كانت الشحنات الأولى في طريقها تشق عباب الماء ، والغاذفات الكبيرة في طريقها ، تشق جو الفضاء . أما التأثير العملي غير المباشر ، فهو ارصاد سبعة آلاف مليون دولار الآن ، لهذا الغرض . وقد اقر مجلس النواب الأميركي هذا المبلغ الضخم ، الذي يكاد يكون رقمه كالأرقام الفلكية التي تقاس بها أبعاد الكواكب باتفاق ٣٣٧ على ٥٥ . وقد لا ينتهي الاسبوع ، حتى يقره مجلس الشيوخ[1] . فاذا تحولت هذه المبالغ الضخمة انتاجاً كما ينظر ، وبالسرعة المنتظرة ، قد تكون الأميركي للديمقراطية سيطر ويطو ، حتى يقضي على الانتاج الأوربي . فقد صرح

(١) أيد مجلس الشيوخ فعلاً في ٩ مارس باتفاق ٦١ صوتاً على ٣٠ صوتاً

المستر هاريمان مندوب الرئيس روزفلت الخصوصي الذي جاء لندن ليلحق ما أعلنه بريطانيا وما يرسل إليها من الولايات المتحدة الأميركية ، بأن قدرة بلاده هذه السنة على انتاج الحديد والصلب ، تبلغ ٨٥ مليون طن . وهو على ما نعلم ضعف ما تستطيع القارة الأوربية جميعاً انتاجهُ باستثناء روسيا . وسئل المستر هاريمان في اجتماعه الصحفي الأول في لندن ، هل تستطيع اميركا ان تنجز الآن ما انجزته في الحرب الماضية في بناء السفن . فقال لي يخيب ظنكم . وهذا القول لا ندرك قيمته الحقيقية الا اذا تذكرنا ما حدث في الحرب الماضية . فقد ما خاضت الولايات المتحدة غمارها في ابريل من سنة ١٩١٧ تهكم بها خصومها فقالوا انها لا تملك جيشاً ، وأن جيوشها لا تدرب ولا تعد بين ليلة وضحاها . وقالوا كذلك ان تفوقها الاقتصادي والصناعي لا يجدي الحلفاء كثيراً لأن الغواصات تغرق من سفن الحلفاء أكثر مما يستطيعون بناءه لتعويض ما يغرق . ولكن لم تنقض اربعة اشهر حتى كانت حكومة تلك البلاد قد استأنت بمعاونة اقطاب الصناعة الأميركية ، من لا شيء تقريباً — لأن صناعة بناء السفن فيها كانت لا تذكر — دوراً متعددة لبناء السفن ، وبدأت كل دار منها تخرج سفينة كل يوم من أيام السنة

***

في اليوم العاشر من شهر يونيو الماضي خطب الرئيس روزفلت فقال « افسحوا الطريق . أزيلوا كل عائق . اقصى السرعة الى الأمام » وفي يوم السبت الماضي خطب كذلك فقال « ونحن هنا ، في وشنطن ، لا نفكر الا في السرعة ، السرعة الآن ، ورجائي ان ينفذ هذا الشعار الى كل بيت في الأمة الأميركية »

ان الأمة الأميركية بمواردها الطبيعية والصناعية والمالية المتفوقة بدأت تعمل والمستر هتلر يدرك ذلك ، وظفره في هذه الحرب ، يعني التغلب على بريطانيا وحلفائها والولايات المتحدة كذلك . وقد يجيئه المسيو ماتسوكا من طوكيو ، ولكن اليابان على الرجح لا تعمل لمجرد حبها لسيد برختسجادن ، انما تعمل لنفسها ، ولا تقدم على استفزاز اميركا في المحيط الهادي ، الا اذا كان هناك أمل راجح بفوز قريب للدكتاتوريات وهذا لأن عبرة السفير موسوليني ماثلة أمام عيني المسيو ماتسوكا

ان المستر هتلر يدرك هذا ، واجتياز الولايات المتحدة نهر الروبيكون ، في هذه الحرب ، يقضي بأن يكون ظفر هتلر في القارة الأوربية محدوداً بحدود زمنية ، لا يحتمل ان تطول كثيراً وقد تكون اقصر مما نظن . قد تتمزق الطريق قبل الوصول ، ولا ريب في انها ستكون وعرة ، ولكن الختام — على قول الجنرال سمطس مساء السبت الماضي — لا ريب فيه [1]

(١) هذا الفصل ملخص لثلاث احاديث ألقاها رئيس تحرير المقتطف من محطة راديو القاهرة

مصر وطريق الهند

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

لجمال الدين الشيال

(المماليك واستغلال طريق الهند) امتاز عصر المماليك في مصر بالبذخ والترف البالغين حدهما الأقصى ، ومع هذا فقد كان المصدر الاول لايراد الدولة في ذلك العصر هو الضرائب الفادحة التي كانت تفرض على تجارة الهند المارة بأحد الطريقين المسلوكين في ذلك الوقت وهما:

(طريق الخليج الفارسي ، وطريق البحر الاحمر) وسواء أعن طريق الخليج الفارسي نقلت التجارة ام عن طريق البحر الاحمر (وهو الأغلب لأنه أصلح) فانها كانت تمر لا محالة في أراضي المماليك إذ هم المالكون في ذلك الوقت لمصر والشام جميعاً

وقد كان مرور التجارة الهندية عبر هذين الطريقين أكبر أثر في ترويج تجارة البحر المتوسط ، وعظمت بسببه ثروة الجمهوريات الايطالية ولا سيما جمهوريتي جنوة والبندقية

(تحول التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح في القرن ١٦) وقد اشتط المماليك والبنادقة في جمع المكوس والضرائب الى درجة أثارت غضب الملك الأوربية وحدها ، فدفعهم ذلك الى البحث عن طريق آخر توصل الى الهند حتى يتيسر لهم الاستيلاء على نصيب من هذه الأموال التي تتدفق الى جيوب المصريين والبنادقة . وساعد على نجاح هذا الاتجاه نشاط حركة الاستكشاف في القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان أول اتجاه البرتغال أول الرواد للبحث عن هذا الطريق . وقد وصل أولهم « هنري الملاح » الى مصب السنغال وأرأس الأخضر في سنة ١٤٤٩ وسنة ١٤٤٧ . ثم واصل هذه الجهود من بعده (برثلوميو دياز) الذي وصل الى طرف افريقيا الجنوبي سنة ١٤٨٦ م ، و « فاسكو دي جاما » الذي وصل الى موزمبيق ، وكالوة ومنبسة وانتهى بهالمطاف الى « قاليقوط » في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي

وقد وقع خبر كشف الطريق الجديد وقوع الصواعق على مصر و لأمم التجارية في البحر المتوسط ولا سيما البنادقة ، وحاولوا القضاء على البرتغال وعلى هذا الطريق الجديد وتحد استعان الغوري سراً مع البنادقة ومع ذلك « قاليقوط » على أن يعلو نجمها وتنزع سيادة البرتغال من

الشرق ، وأنشأ الفنوري أسطولاً عظيماً وقدم البادقة إليه كل عون ، وأمدوه بالأخشاب التي يريدها لبناء الأسطول ، وتعاون الاسطولان مع بعض الرقاصل في التجار احد ما يحرب من شواطئ بجاية ، وانتصر المصريون في الموقعة الأولى ، ولكن لم يلبث الرقاصة بعد أن جمعوا أسطولاً آخر ، وانتصروا على المصريين أمام بجاية سنة ١٥٠٩ م (سنة ٩١٥ هـ) فكانت هذه الموقعة هي الفاصلة في أمر التجارة الهندية . وظل هذا الطريق الجديد — طريق رأس الرجاء الصالح — هو الطريق المطروق من التجار الاوروبيين طوال القرن السادس عشر

(انكلترا تبدأ علاقاتها التجارية مع الشرق) كانت نتيجة حرب المائة سنة مع فرنسا أن فقدت انكلترا ممتلكاتها في القارة حيث الغنى والقوة ، وكذلك أدت حروب الوردتين إلى قيام حكومة مركزية ، ولهذا ابتدأ البحر يلعب دوره ، ويقود الانكليز إلى منابع وميادين جديدة للثروة والنشاط . وخلال هذا القرن (١٦) كانت طائفة من سفنهم تغادر الساحل الغربي فتنفذ إلى البحر المتوسط حيث تثير قليلاً من اهتمام السفن الاسبانية والفرنسية والبندقية التي كانت تحتكر عباب هذا البحر منذ أمد طويل . فطريق مرور التجارة من الشرق وإليه عبر البحر المتوسط كان معروفاً منذ القدم ، ولكن الانكليز لم يحاولوا استعماله إلا قبيل نهاية القرن السادس عشر وذلك لسببين :

١ — أحدهما يتعلق بالعوامل الطبيعية للجزر البريطانية

٢ — والثاني يتصل بالعداء القديم بين الاسطولين البريطاني والاسباني . فشاعت الرغبة في الاتصال بالشرق ، ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقات السياسية بين انكلترا والدولة العثمانية

وفي هذا الوقت نفسه — أي في القرن السادس عشر — كانت دول أوربا تخطب ود السلطان بوساطة سفرائها الذين أتوا يمثلون الشعوب الأوربية المختلفة ، وذلك لان تركيا كانت حينذاك في أوج مجدها ، فكانت — وهو الأهم في نظر دول اوربا — تسيطر على طرق التجارة البرية المؤدية إلى الشرق والمصروفة في ذلك الوقت ، وابتدأ التنافس بين هذه الدول لمحاولة الفرنسيين — تؤيدهم حكومتهم ، ويشد أزرهم البادقة — الانتقاص من قسمة شركة الشرق الانكليزية ، وتحديد امتيازاتها التجارية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولكن باعتراف السلطان بوجود سفير لانكلترا سنة ١٥٨٣ بدأ عهد جديد هام في تاريخ العلاقات الانكليزية بالشرق

وفي ذلك الحين كان الانكليز قد استوثقوا من قدرتهم على نزول حلبة المنافسة التجارية مع جيرانهم الاوروبيين وبذلك ابتدأوا يفكرون في تتبع التجارة الشرقية حتى مصادرها الأصلية ، وقادهم هذا التفكير إلى بذل مساعٍ كثيرة يتلو بعضها البعض الآخر لاكتشاف طرق برية تصل بين الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط والسواحل الاسيوية الشرقية ، وقد حبذت

هذه المحاولات جميعاً ويرجع حبوطها إما الى العقبات الطبيعية التي تتخلل هذه الطرق ، وإما الى صعوبة النقل ، وتأخر وسائله في ذلك الزمن

أما المخاطرات والمحاولات الأخرى للوصول الى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح فقد أدّت الى انحلال القوى الاسبانية ، كما فتحت الطريق الى نمو غزير للثروة جذب الانكليز نحوه حتى اضطروا في أواخر هذا القرن الى الانصراف عن طريق البحر المتوسط الذي كان يدر عليهم الربح الوفير الى هذا الطريق الجديد وهو أوفر ربحاً . واستمر هذا الطريق مفضلاً عند التجار الانكليز حتى عهد الثورة الصناعية التي أعادت توجيه طرق الاتصال والتجارة مع الشرق نحو البحر المتوسط ، وذلك في القرن التاسع عشر

وبرغم هذا فقد بقي القليل من التجار الانكليز يعبرون البحر المتوسط للوصول بتجارتهم نحو الشرق ، يشجعهم على ذلك أنهم استبدوا نحو قرنين يتمتعون بالامتيازات التي حصلوا عليها سنة ١٦٠٤ ، وهي تشابه في كثير من الوجوه الامتيازات التي منحت للفرنسيين سنة ١٥٣٥ والتي تبيح لهم التجارة في جميع الثغور العثمانية

﴿ انكلترا تحاول العودة الى طريق مصر البحر الاحمر في القرن ١٧ ﴾ وحوالي نهاية القرن السابع عشر عبرت بعض السفن الانكليزية بحر العرب ، ودخلت الى البحر الاحمر واشترت صفقة جد رابحة من البن اليمني من مدينة مُخا

كانت هذه المحاولة للوصول الى أوروبا عن طريق مصر والبحر الاحمر عاملاً قويًّا دفع القوم الى التفكير الجدي في عقد صلات جديدة بين انكلترا وسواحل آسيا الجنوبية بانشاء طريق جديد يجوس خلال مصر

وفي سنة ١٦٩٨ مرَّ هنري تستو Tistew (وكان قبل ذلك قنصلاً لانكلترا في طرابلس) بمصر والبحر الاحمر ، وفي عزمه العمل على زعزعة طريق التجارة المار بمصر والبحر الاحمر ولكن آماله خيبت لأن الدولة العثمانية أصدرت أمراً بمنع السفن المسيحية من الملاحة في البحر الاحمر شمال ثغر جدة لقرب هذا الثغر من المدينتين المقدستين — مكة والمدينة — ومع هذا فقد استمرت التجارة نشطة مزدهرة بين جدة ومخا وبجاي تقوم بها السفن الانكليزية والعربية على السواء

أما في القرن الثامن عشر فقد تطوَّر اهتمام الدول الاوربية بمصر كطريق للتجارة نحو الشرق فأصبح احتلالاً خفيًّا بين انكلترا وفرنسا للسيطرة على أرض المصريين ، وسنحاول في مقال قابل ان شاء الله أن نحدث القراء حديثاً موجزاً عن تطور هذا النضال ونتائجه